"قسطنطين زريق المفكر القومي العربي"

لعبد الغني عماد

آمن بالحرية طريقاً للوحدة العربية

الكلام على قسطنطين زريق يمثل عودة فاعلة وحقيقية إلى مرحلة التيار القومي العربي الذي تصاعد وهجه يوماً بعد يوم، إثر مرحلة جمال عبدالناصر التي ألهبت المشاعر وعقلنة المبادىء، وأعطت دفعاً للحركات الثورية في مختلف أقطار الوطن العربي.

وقسطنطين زريق اسم لمع في فضاء الفكر العربي كرائد كبير تعلّم منه القادة والرؤساء، وانتشرت أفكاره بين الشباب العربي المتطلع إلى بناء المستقبل على أسس علمية راسخة.

كان زريق يعتمد على العقل في كل ما كتب، وكان يرى ان لا سبيل للدخول في العصر إلا عبر الحداثة المبنية على المعرفة والثقافة، وعلى ضرورة تحويل الأفكار إلى أفعال، تنحفر عميقاً في الأرض وتغير على هواها.

كان هذا المفكر صاحب عقل نيّر، ورؤية ثاقبة وكان رجلاً ديناميكياً، بكل ما في الكلمة من معنى. وأذكر انني دُعيت مرة إلى مؤتمر ثقافي في القاهرة، شارك فيه

عدد من المثقفين اللبنانيين والمصريين والعرب، ولم يكن اسم قسطنطين زريق بينهم، وبعد يومين تقريباً من افتتاح المؤتمر، يأتي إلى مكان انعقاده، ويشارك ويناقش كل شاردة وواردة فيه، وهذا ما أسهم في احتدام المناقشات وإغنائها واعطائها بعداً علمياً مرموقاً، وبعداً معرفياً ملحوظاً.

واليوم يستعيد الدكتور عبد الغني عماد ضمن سلسلة ((سير وأعلام)) الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية هذا المفكر الكبير عبر كتيّب بعنوان: ((قسطنطين زريق الداعية والمفكر القومي العربي)) ويتضمن المواضيع التالية: سيرته ونشأته، مؤلفاته، المفكر والمؤرخ المتميز، المفكر القومي والمنظّر الوحدوي الرائد، الدين والقومية، التراث القومي، النخبة القومية، التربية القومية، العقلانية، الحرية هي الطريق إلى الوحدة، فلسطين، والعبور إلى الديموقراطية.

زريق واحد من الذين أسهموا في تطوير الكثير من المفاهيم السياسية والاجتماعية التي راجت في الوطن العربي ولاقت قبولاً واسعاً في مختلف الاوساط الثقافية والفكرية. وتمكن من تأسيس منهج فكري واضح، سار على هداه جمع غفير من المؤمنين بالقومية العربية، وبالمستقبل العربي.

أسهم زريق في ((بناء الأرضية الفكرية والايديولوجية التي انطلقت منها كبرى الحركات القومية على امتداد الوطن العربي في تاريخه الحديث)) ويذكر الكاتب عماد أن ((تأثيره كان بارزاً في نشأة حركة القوميين العرب تحديداً. وكانت جمعية العروة الوثقى وهي الجمعية الأدبية العلمية العاملة في الجامعة الاطار العلني التي انطلقت فيها أفكاره، وفيها تحلّق حوله الطلاب، وذاعت شهرته في الوطن العربي)).

يقسّم الكاتب مؤلفات زريق إلى ثلاث مجموعات، الأولى تتخذ الطابع الأكاديمي البحت. وتقوم على ((الترجمة والتحقيق التاريخي لمخطوطات نادرة في التراث العربي والاسلامي)) وتضم ستة كتب ومجلدات تتناول موضوعات متنوعة. وكان

أبرزها ((تحقيق ونشر تهذيب الأخلاق لـــ ((أحمد بن مسكويه)) الذي ترجمه إلى الانكليزية أيضاً.

والمجموعة الثانية تضمّ أربعة كتب وهي: ((الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية المنفتحة في الشرق العربي)) الذي صدر عام 1939، وهذا الكتاب هو الذي أطلق اسم قسطنطين زريق في مختلف أصقاع الوطن العربي، والكتاب الثاني صدر عام 1957 بعنوان ((أي غد؟ دراسات لبعض بواعث نهضتنا المرجوّة)) أما الكتاب الثالث فقد صدر عام 1963 بعنوان ((هذا العصر المتفجر: نظرات في واقعنا وواقع الانسانية)) وآخر كتاب له ضمن هذه المجموعة فقد صدر عام 1966 ((أعظم من منتصرين)) ويتضمن مجمل الخطب التي ألقاها في مناسبات مختلفة.

وتضم المجموعة الثالثة الكتب التي تضم موضوعاً واحداً وبشكل متكامل.. وأول كتاب كان بعنوان ((معنى النكبة)) الذي صدر عام 1948 وانتشر واسعاً لأنه تلافى الكلام العاطفي، مركزاّ على المقاربات العقلانية التي تميز كتابته ومنهجه في التعاطي مع مختلف المسائل التي يتناولها. أما الكتاب الثاني فقد كان بعنوان ((نحن التاريخ: مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ)) الذي أصدره عام 1959. أما ثالث كتب هذه المجموعة فهو ((في معركة الحضارة: دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها وفي الواقع الحضاري)) وقد أصدره عام 1964. ويأتي الكتاب الرابع الذي أصدره عام 1977 بعنوان ((نحن والمستقبل)) وفيه يتناول مسألة الانخراط في المستقبل انخراطاً كاملاً من حيث الشكل والمضمون.

يتميز زريق بقدرة فائقة على استشراف المستقبل. وهذه القدرة جزء من عملية التأريخ الوطني والسياسي والحضاري، وهو في عملية التأريخ لم يكن يعمل على إثبات الأحداث كما هي، بل كان يسعى إلى تعليلها ويطرح الأسئلة. وهذه الطريقة ساعدته كثيراً في اكتشاف معالم المستقبل.

واهتم هذا المؤرخ الكبير أكثر ما اهتمّ في الوصول إلى الحقيقة، مهما كانت كلفتها، ومهما كان ثمنها. ثم عمل على إعلانها أمام الملأ، لتكون ثمرة الجهد العظيم الذي قام به.

هذا ولا يعتقد زريق أن التاريخ دولاب وأن ما حدث في الماضي سوف يتكرر في المستقبل. لكنه يقرّ بضرورة معرفة ((الاتجاهات)) في الماضي، لأنها تسهم في معرفتنا، وبشكل أفضل لمختلف المشكلات القائمة في عصرنا الراهن. أما كتابه ((الوعي القومي)) الذي أصدره في أواخر الثلاثينيات فقد جاء رداً على الافكار الاقليمية المنعزلة، ورداً على التفكير الطائفي والعائلي والمناطقي لصالح الفكرة القومية العربية التي لم تكن سائدة آنذاك، ولم تكن مقبولة من كثيرين. ذلك ان الزعيم الوطني المصري سعد زغلول عندما سئل عن الوحدة العربية أجاب:
صفر زائد صفر يساوي صفراً. ولهذا لم يتجاوز نضاله الحدود الاقليمية ولم يتعدّ المفاهيم الضيّقة التي كانت سائدة في ذلك الزمن.

ويشير الكاتب عماد بأن هناك من تأثّر بهذا الاصدار المهم، ومنهم العلامة الشيخ عبدالله العلايلي الذي أصدر ((دستور العرب القومي)) وعلي ناصرالدين الذي أصدر ((قضية العرب)).

ورأى مبكراً أن نهضة العرب القومية تحتاج إلى نهضة فكرية تسبقها أو في أحسن الحالات تلازمها. لأن النهضة تحتاج إلى نهضويين مؤمنين بفكر النهضة، مقتنعين به، وعاملين على تحويله من أفكار نظرية إلى ممارسات عملية على صعيد الواقع. وهذا يتطلب وجود عقيدة قومية تجمع في صفوفها كل أبنائها الميامين. وتشكل حالة انبعاث لهذه الأمة، فتخرج من القمقم، لتسهم في بناء الحياة، وتنقلنا من الظلمة إلى النور.

وإذا كانت هناك أيديولوجيات تقوم على أساس نفي الدين، أو على اتخاذ موقف سلبـــي من الدين، فإن العقيدة القومية لدى زريق متصالحة مع الدين، ومنفتحة على كل الافكار في العالم، تأخذ منها وتعطيها لتظل في عملية توليد، تسهم في تنشيط

الحركة، وفي اعطائها المزيد من الدفع والزخم، ولهذا القومية العربية بشكل عام تتعاطى مع الاديان بشكل إيجابي، باعتبارها المعين الروحي الذي ينعكس قوة على كل من آمن بضرورتها وجدواها. يقول: ((القومية العربية لا تعارض ديناً من الأديان بل تقبل على الاديان جميعاً لترتشف من منابعها الفياضة كؤوس الصفاء والقوة والخلود)).

وزريق المفكر المسيحي، البعيد كل البعد عن الشعور الطائفي، على اعتبار ان القومية العربية تندرج ضمن إطارها الواسع كل الاديان، فقد كتب بحثاً قيماً ((بمناسبة مولد النبـــي العربي الكبير، لاقى صدى إيجابياً واسعاً في مختلف الأوساط الديني وغير الدينية، وسار على هديه مفكر مسيحي آخر هو ميشيل عفلق الذي قدم محاضرة شهيرة حول الموضوع نفسه، حازت على الإعجاب والتأييد الذي لا يخلو من الابهار، كما ذكر الكاتب عماد.

زريق علماني لكنه مؤمن. وتمكن برجاحة عقله أن يبعد القومية عن المواجهة مع الأديان. لكنه كان يرى ان هناك ضرورة قصوى للعمل على تكريس علمانية الدولة، انطلاقاً من مكونات هذه الأمة المتنوعة.

وأدرك المفكر الكبير زريق انه ليس هناك مشكلة بين المسيحية والاسلام، أو بين هذه الجهة الدينية أو تلك، بل الصراع هو بين تيارين: ((الرجعية والتحررية)).

وركز الدكتور زريق على دور النخبة في إحداث عملية التغيير، وفي الانتقال بالمجتمع من حالة إلى حالة أفضل ورأى ((ان المثلث الذي يقوم على العقيدة والتراث والتربية غير قادر بحد ذاته على التحرك، ونقل المجتمع من وضعه الراهن إلى حالته المرجوّة، لأنه يتكوّن في الأساس من عوامل غير متحركة، وهو ((يختاج لكي يصبح حالة فعالة وديناميكية إلى قوة من خارجه تعمل على تنشيطه وعلى توجيهه واستغلال للطاقات الكامنة)).

من هنا تأتي أهمية الكلام على النخبة التي جعل منها مفهوماً ((يساوي المفاهيم الأخرى كالقيادة والطليعة والخبرة والرسل والصحابة وما إليه، فهذه المفاهيم تشير إلى أقلية متميزة هي المسؤولة بقدراتها الابداعية عن قيام الحضارات)).

ويرى زريق حسب ما قال عماد ان نظام التربية العربية المتخلّف والسائد اليوم في مختلف الدول العربية يؤدي إلى تفاقم المشاكل العربية ولهذا لا بد من العمل لكي تصبح التربية عامل تقدم، وليس عاملاً يؤدي بنا إلى استمرار التخلّف. وتركيزه الكبير على الناحية التربوية يذكر بالمفكر القومي الكبير ساطع الحصري الذي أولى هذه المسألة أهمية بالغة.

وفي معرض كلامه على العقلانية رأى الدكتور زريق ((ان الأمة التي تهزأ بالعقل وتهمله يحق عليها لا عليه الهزء والإهمال والخسران)). فالعقل هو السبيل الوحيد إلى صنع التقدم، وإلى صنع المستقبل، وإلى الانصهار في المعاصرة، والعمل على صنع الحياة التي نريد، على الرغم من كل التحديات التي تقف عائقاً أمام الوصول إلى ما يحقق طموحاتنا، وشوقنا الغامر إليها.

فالعقل العربي في الماضي كان قاصراً. أو فلنقل ان أمتنا العربية لم تمنح العقل ما يستحق من الانتباه، ولم تضعه في أول أولوياتها، فنتج عن ذلك عدم قدرتنا على مسايرة المدنية في مختلف أصقاع الوطن العربي.

و((ضعف العقلانية في الحياة العربية أدّى إلى غياب الروح العلمية وطغيان الاهتمامات الأدبية على الحياة الفكرية)) ذلك ان وجود العلم الطاغي وهيمنته على الحياة يحقق الحرية ويدفع المجتمع أشواطاً كبيرة إلى الأمام.

والعلم القائم على الأبحاث المدروسة بعناية فائقة، ينتج عنه حقائق موضوعية، لا نستطيع تجاهلها أو إهمالها، لا بل علينا أن نستفيد منها في دراستنا للواقع، وفي رؤيتنا الجادة للمستقبل.

ولهذا يخصص العدو الإسرائيلي ميزانية كبيرة للبحث العلمي، في حين اننا كأمة عربية لا نعير هذا الشأن ما يستحق من الاهتمام. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على قصور في الرؤية، وفي معرفة أهمية هذا الأمر في تطوير حياتنا المعاصرة.

كذلك يشير الدكتور زريق إلى اننا نهجّر الكثير من الطاقات العلمية والفكرية إلى الخارج فيستفيد منها الغرب إفادة جمّة. بينما يعمل الكيان الصهيوني على استعادة علمائه وباحثيه من أقاصي الأرض، ليستفيد من علمهم وكفاءاتهم. ويرى الدكتور زريق ان الحرية الكاملة هي الطريق إلى الوحدة العربية لكن أمامها عقبات كأداة حالت دون قيامها ومنها ((العصبيات القبلية والطائفية والقطرية، ومنها الجهل والعجز والبؤس وسواها من مظاهر التخلّف الاجتماعي، ومنها أيضاً ضعف القيادات وتناحرها وسعيها إلى أغراضها الخاصة)).

والتجارب الوحدوية في الوطن العربي غير مشجعة وكلها باءت بالفشل، ولا بد لنا إلا أن نستثني في هذا الإطار التجربة اليمنية التي تحققت وحدتها بقوة السلاح، وما تزال قائمة إلى اليوم على الرغم من ما يسمى بـــ((الربيع العربي)) الذي أباح كل ما هو محظور لكن لم يصل به الأمر إلى أي تغيير، على هذا الصعيد.

ولا بدّ إلا أن نشير إلى ان العوامل الذاتية التي ذكرها الكاتب كلها صحيحة ومهمة، لكن علينا ألا ننسى أيضاً ان هناك عوامل خارجية تتمثل بموقف الامبريالية والرجعية العربية والصهيونية من الوحدة وخير مثال على ذلك تجربة الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958 بقيادة جمال عبدالناصر، التي اجتمع عليها الاعداء من كل حدب وصوب حتى أجهضوها، ولهذا يرى زريق ((إن إقامة الوحدة العربية عمل إبداعي ولا يقوى عليه إلا مجتمع خليق بالابداع. والانتقال إلى هذا المجتمع لا يتم إلا ببناء القدرة الذاتية التي تعني القدرة على الصمود في وجه الاخطار الخارجية)).
واهتم الدكتور زريق اهتماماً بالغاً بفلسطين. ولهذا كان يحذر العرب دائماً من الخطر الصهيوني الذي يهدد الأمة العربية برمتها، ويعمل على نهب ثرواتنا القومية.

ويرى ان هناك فارقاً كبيراً بين المجتمع الصهيوني القائم على أسس الحضارة الحديثة وبين المجتمعات العربية اللاتي ما تزال تعيش في القرون الوسطى وتحنّ إلى الماضي، وتجافي كل ما هو حديث.

ولن يتحقق الانتصار على العدو الصهيوني إلا إذا عمل العرب ((على بناء المحتوى الحضاري لكيانهم، إلى جانب معركة الحفاظ على النفس وإقامة الكيان، ولأن المعركة الأولى موجهة ضد التخلّف الحضاري بجميع أوجهه)).

قسطنطين زريق كاتب مهموم بالقضايا العربية، قضى حياته وهو يعمل من أجل تعزيز المفاهيم التقدمية الحديثة التي من شأنها نقل المجتمع العربي إلى المعاصرة.

((قسطنطين زريق الداعية والمفكر القومي العربي)) للدكتور عبد الغني عماد كتيّب يبين أهمية هذا الباحث المفكر الذي ظل ثابتاً على المفاهيم التي نادى بها، وتربت عليها أجيال من شبابنا وشاباتنا، وأضحت جزءاً أساسياً من الكينونة العربية، الباحثة دائماً عن المستقبل الذي نريد من خلال التزامها الصارم بالقيم العربية، وبالحضارة العربية في صراعها المرير والصعب مع الصهيونية.

أعاد الكاتب عماد المفكر والمؤرخ زريق إلى الذاكرة العربية وإلى حاضرنا الممجوج، لعل بعضاً من الشباب يقرأونه ويتأثرون بما أرسى من مبادىء ومفاهيم وقيم.

وزريق سيظل حاضراً في حياتنا العربية ما دامت الفكرة العربية متّقدة، ومشتعلة على الرغم من السيادة المطلقة للأفكار الانهزامية التي تقوم على العزلة والاقليمية والتقوقع.

لامع الحر

نُشرت في مجلة الشراع، العدد 1574، الاثنين كانون الأول/ ديسمبر 2012